عبقرية محمد الإدارية

obeikandl.com

ملكات شخصية

في الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل في تصرُّف رجال الإدارة كما نسمِّيهم اليوم.. وفيه وصايا كثيرة من المعاملات، كالمساناة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدي بها المتشرِّعون في جميع العصور.

ولكنَّا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهي مشروحة في مواطنها لمن شاء الرجوع إليها.

وإنما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هي ملكات شخصية وسلائق نفسية، تلازمه حيث كان مؤدِّيا لرسالة الدين، أو مؤدِّيا لغير الرسالة من سائر أعمال الإنسان.

وكذلك لا يعنينا مثلًا أن نتكلم عن "الإدارة" كأنها نصوص المنشورات و "اللوائح" التي تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة في مكاتب الحكومة، فإن هذه وما إليها هي أعمال منفِّذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين. وإنما نعنى الملكة الإدارية من حيث هي أساس في التفكير، من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الإدارة كلها على أساس قومية، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير[1] والأوراق.

فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعية أن يؤسس إدارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمَّة.

---

(١) ما نسمِّيه الملفات اليوم. جاء من ضبر أي رتب ووضع الشيء فوق بعضه.

أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام وتعرف التبعة، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرِّقين يتولاه كلٌّ منهم على هواه.

وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتمِّ ما تكون.

كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج إلى تدبير. ومن حديثة المأثور **"إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤَمِّروا أحدهم"**. ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة إذا أصيب من تقدَّمه بما يقعده عن القيادة. وكان قوام الرئاسة والإمامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب: **"أيما رجل استعمل رجلًا على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين"**.

و**" أيما رجل أمَّ قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه "**.

وكان إلى عنايته بإسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حريصًا على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر، على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قال: **"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه. والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "**.

وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفةٍ كبيرةٍ من المسلمين أنصارًا كانوا أو مهاجرين، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدًا يدعى لنفسه حقًّا في إقامة الحدود، وإكراه الناس على طاعة الأوامر، واجتناب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس.

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلًا من المشركين غضب عليه السلام، وقال فيما قال من حديثه المبين: "... **فمن قال لكم أن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة**... ". ولما أراد أن يصادر الخمر نهج في ذلك منهجًا يقصد به إلى التعليم والاستنان كما جاء في رواية ابن عمر حيث قال: "أمرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آتيه بمدية، فأتيته بها، فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال: اغْدُ عليَّ بها. ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام. فأخذ المدية مني فشقَّ ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثمَّ أعطانيها، وأمر الذين كانوا معه أن يمضوا معي ويعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أُوجد فيها زقَّ خمر إلا شققته، فلم أترك في أسواقها زقًّا إلا شققته".

وهذا تصرّف المدير بعد تصرّف النبي الذي يبيِّن الحرام ويبين الحلال.

فالخمر شربها، وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين من تفقه منهم ومن لم يتفقه في الدين، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغي أن تكون في يدِ وليِّ المسلمين لا في يدِ كل فرد يعرف الحلال والحرام. وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل، ولكنها مسألة إدارة وتنفيذ في

مجتمع حافل يشتمل على شتي المصالح والأهواء، ولا يصاب ببلاء هو أضرّ عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان، فلم يكتفِ النبي عليه السلام بصريح التحريم في القرآن، ولا اكتفى بإسناد الأمر إلى غير معروف الصِّفة في تنفيذ الأحكام، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسًا بأعينهم أن يمضوا في إتمام عمله، ولم يجعل ذلك إذنًا لمن شاء أن يفعل ما شاء..

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيدِ أركان الشريعة والقانون، ولكنَّنا لا نعرف في كلِّ ما قيل كلامًا هو أجمع لوجوه الصواب في هذه المسألة من قول النبي: **"السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"**. ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت: "... ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان". ومن قوله: **"الإمام الجائر خير من الفتنة، وكلٌّ لا خير فيه. وفى بعض الشرِّ خيار"**. ومن قوله: **"إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم"** إلى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الإدارة الحكيمة والخطط السليمة المستقيمة، بين آمر ومأمور.

نظام وفوق النظام سلطان، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شكَّ فيه، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء..

هذا الإلهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذي أوحى إلى الرسول الأميِّ قبل كشف الجراثيم،

وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضى في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: **"إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"**.

فتلك وصية من ينظر في تدبيره إلى العالم الإنساني بأسره لا إلى سلامة مدينة واحدةٍ أو سلامة فردٍ واحدٍ.. إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء في مكانه، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها.

obeikandl.com

تدبير الشئون العامة

على أنَّ الإدارة العليا إنما تتجلى في تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة كلها نصوصًا وقواعد يجري الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات والموازين التي تصرف الشئون على نسق واحدٍ، ولكنها في كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك.

وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمَّد في حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام. فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء، وأدناها إلى السلم والإرضاء.

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة، ولا تؤمن عقبي الفصل فيه بإيثار إحدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيثار من طريق المصادفة والاقتراع، فأشار محمد بالرأي الذي لا رأي غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول. فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كلَّ زعيم في طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان، وأن ينسلف الدعوة وهى مكنونة في طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذٍ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن.

وصنع ذلك يوم هاجر من مكَّة إلى المدينة فاستقبله الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلّةٍ دون محلة..

فترك لناقته خطامها[١] تسير ويفسح الناس لها طريقها حيث بركت حيث طاب لها أن تبرك.

وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها، ولو أمنت في تلك الساعة على دَخَلٍ وسوء طويَّة.

وصنع ذلك يوم فضَّل بالغنائم أناسًا من أهل مكة الضعيف إيمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام وثبتوا على الجهاد، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها، بل تريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع في وقت واحد: **"أوجدتم[٢] يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار..."**.

---

(١) حبلها.

(٢) من الموجدة وهي الغيرة.

كلام مدير فيه الإدارة والرياسة هبَة من هبات الخلق والتكوين.. فهو مدير حين تكون الإدارة تدبير أمور، ومدير حين تكون الإدارة تدبير شعور، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتَورُها الفوضى ويتطرق إليها الاختلال؛ لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة، وبالاختصاص وبالسماحة، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلاف أو انحلال، أو لخطل في إدارة الأعمال.

obeikandl.com

البليغ

" اللهم هل بلغت "!

هذه هي اللازمة التي ردَّدها النبي في أطول خطبه الأخيرة، وهى خطبة الوداع..

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها، لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات. فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياةَ تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه: **"جلال ربي الرفيع فقد بلغت!"**.

ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى.. بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع.

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا إما معاهدات ورسائل كتبت في حينها، وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع.

والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعًا، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله.

انظر مثلًا إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهى كما جاء في مختار مسلم:

"... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فآووا إلى غار في جبل. فانحطت على فَم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم. فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالًا عملتموها صالحةً لله فادعوا الله تعالى بها، لعلَّ الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم. فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بنيِّ. وأنه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آتِ حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما. فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي. فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها فرجة نرى منها السماء.

ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عمٍّ أحببتها كأشدِّ ما يحبُّ الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار. فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها.

فلما وقعتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله! اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقِّه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجَة. ففرج لهم.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق[١] أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقِّي، فعرضت عليه فرَقه فرغب عنه.. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاءَها فقال: اتَّق الله ولا تظلمني حقي! قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فقال: اتَّق الله ولا تستهزئ بي! فقلت: إني لا أستهزئ بك. خذ ذلك البقر ورعاءها! فأخذه فذهب به..

فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى، ففرج الله ما بقي".

(١) إناء يسع ثلاثة آصع.

obeikandl.com

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام في التعليم بالقصص.

فانظر إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة كما جاء في مختار مسلم حيث قال: كان رسول الله إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهنَّ ما أجابوك فاقبَل منهم وكفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا فاستعن الله وقاتلهم.

"وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمَّتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

"وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فأنت لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا".

وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر والوصايا.

فانظر إلى أسلوبه في الرسائل من رسالته إلى النجاشي حيث قال:

"سِلْم أنت. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.

"وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله.

"وقد بعثت إليك ابن عمِّي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبُّر.. فإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي.

والسلام على من اتبع الهدى".

obeikandl.com

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه في المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء في كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود..

"... المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"... وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط بين المؤمنين.

"... وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تعدي عانيها بالقسط بين المؤمنين.

"... وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين...".

وهكذا إلى آخر الكتاب.

تلك نماذج من كلام النبي في أربعة أبواب مختلفات، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها، وهى سمة الإبلاغ أو الإبلاغ المبين. وأصدق ما يقال في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين.

فليس أقرب من هذا الأسلوب في إبلاغ الغرض منه.

obeikandl.com

لا كلفة ولا غموض ولا إغراب، وقلة الغريب – بل ندرته – في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية..

فمحمد العربي القرشي الناشئ في بني سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة... وسرُّ ذلك أن يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب، ومن ذلك ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال: **"إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها"**.

وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضًا عن اللغو لا يقول إلا الحق وإن قاله في مزاح.

فمن ثمَّ لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة. فإذا كرر اللفظ بعينه كما جاء في بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيصَ عنه؛ لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلاقه. فهو أيضًا سِمَة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق، أو على سبيل الإعادة التي روي أنه كان يتوخَّاها عليه الصلاة والسلام أحيانًا ليعقل عنه كلامه.

وفى كتابه إلى النجاشي زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الإشارة إلى المسيح وأمه لم يؤثر في الكتب الأخرى، ولكنها ألزم ما يلزم في خطاب ملك مسيحيٍّ يرادُ منه أن يفهم كيف تتَّفق صفات الله والمسيح في دينه وفى دين المسلمين الذي يدعى إليه، وكيف يبتغي طريق المقابلة بين العقيدتين إذا شاء.. ما على الرسول إلا البلاغ.

وهذا هو البلاغ في التعبير: كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار..

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمِّل في ابتغاء التأثير، إلا الإبلاغ الذي يليق بالرجولة والكرامة، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الإعراض.

obeikandl.com

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره "سجع الكهان" الذي يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتي على السجية، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالأذان وما هو في حكمه، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله: **"ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط. قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق"** أو قوله: **"إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات، ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال"**.

ومذهبه في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كلِّ حلية تليق بالرجل: فحولة في القول وحلية في الزينة، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التي يليق بالرجل أن يتحلى بها، ولا مزيد.

كتب إليه أبو سفيان كتابًا يقول في آخره :

".. نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار.

تَجاوَبـت القَبائـلُ مـن نِـزَارٍ لِنـصْرِ الـلاتِ في البيـتِ حـرَامِ

وأَقْبَلَـت الـضَّراغِمُ مـن قـريشٍ عـلى خَيْـلٍ مُـسَوَّمَةٍ ضِرَامِ

فأجابه بكتاب جاء فيه: " وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم. فو الله ما لكم عندي جواب إلا

أطراف الرماح وأشفار الصفاح، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام، وبفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار...".

فهذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين؛ لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف. ومن هنا أقر النبي نص الحلف الذي كان بين جدِّه وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقًا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات. وهذا نصه:

" باسمك اللهم. هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفًا جامعًا غير مفرق: الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب. قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير، وحنَّ بفلاة بعير، وما قام الأخشبان[1]، واعتمر بمكة إنسان: حلف أبد لطول أمد. يؤيده طلوع الشمس شدًّا، وظلام الليل مدًّا. وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون. على عبد المطلب النصر لهم بمن تابعه على طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل. وجعلوا الله على ذلك كفيلًا، وكفى به حميلًا.. ".

هذه أمثلة السجع الذي فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الإبلاغ الذي لا كلفة فيه.

---

(١) جبلا مكة.

وقد أعانه عليه الصلاة والسلام على أسلوب الإبلاغ أن الذين كانوا يستمعون إليه إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبي محبوب مطاع. فهو نافذ في نفوسهم بغير حيلة، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق قائم بالكفاية الوسطى التي لا حاجة بها إلى إفراط ولا خوف عليها من تفريط.

أما رسائله إلى الملوك والأمراء – ممن لم يسلم ولم يهتدِ – فإنما كانت للإبلاغ أول الأمر ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين بالإجابة فيما يسألونه عنه، فهي كذلك قائمة على كفاية الإبلاغ، تلك الكفاية الوسطى التي لا إفراط فيها ولا تفريط.

ونقول أن الأمرين أعانا النبي على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول أنهما أنشآه وأوحياه.. فإن الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين وإقبال الأتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع.. لأن مصدر الفحولة في الإبلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين إليه. فكلامه كله نسقٌ واحدٌ في هذه الخصلة. وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه، ووصاته لمن يقتدي به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة.

ولا يفهمنَّ من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس. فقد كان عليه الصلاة والسلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكئ على قوس وهو يخطب في الحرب، أو يتكئ على عصا وهو يخطب

في العظات، وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصدره إذا غضب أو أنذر فكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتدَّ غضبه كأنه منذر جيش: صبحكم مساكم".

obeikandl.com

أسلوب عصري

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي – كتابة وخطابًا – أسلوبًا عصريًّا يقتدى به المعاصرون في زماننا هذا وفى كلِّ زمان.. لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطًا للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة في الزمن الأخير، ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب. فإليك الحديث الذي نقلناه آنفًا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه الصلاة والسلام: **"ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط: قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق"**.

هذا الحديث رضى البلاغة العربية في وصله وفصله، ورضى الأسلوب العصري في إشارات ترقيمه، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق.

obeikandl.com

رأي النبي في الشعر

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأي النبي في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفني وتدخل في كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة. ومنها قوله: " **أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خل الله باطل** ". وقوله عن امرئ القيس إنه صاحب لواء الشعراء إلى النار، وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود، فكان يقول مثلًا: " **ويأتيك بالأخبار من لم تزود** " لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس: " كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا " قدم كلمة الإسلام فقال: " **كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا** " لينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون.

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النضح عن الإسلام والذود عنه وعن آله، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام؛ لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم في قواعد النقد والإنشاء..

جوامع الكلم

إلا أن الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات.

ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله: " **احرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا** ".

ومن أمثلته علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله: " **كما تكونوا يولَّ عليكم** "..

فأيُّ قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات؟

ينطوي فيها أنَّ الأمم مسئولةٌ عن حكوماتها، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه؛ لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه.

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمَّة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة فلا سبيل إلى الاستبداد بأمَّةٍ تعافُ الاستبداد ولو لم يتقيَّد فيها الحاكم بقيود القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمَّة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأحرى ألا يغير الوالي قومًا حتى يتغيروا هم قبل ذلك.

وينطوي فيها " أن الأمة مصدر السلطات " على حد التعبير الحديث.

وينطوي فيها أن الأمَّة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذٍ.

ويلحق بهذا في العلم بالتبعات قوله عليه الصلاة والسلام : **"أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل"**.

فالمزايا الإنسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأزياء، وعلم الإنسان بالخير والشرِّ يفرض عليه الفرائض التي يبتلى بها، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو إليها. وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوبٌ عليه.

وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام.

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء.

وكان بليغًا مبلغًا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية. وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين.

* * *

obeikandi.com